حالة الاغتراب عند حنة أرندت

The Hannah Arendt concept of alianation

لويزة عنون [1*]، مليكة بن دودة[2]

[1] جامعة الجزائر2 (الجزائر)،louisa.announ@univ-alger2.dz

[2] جامعة تيبازة (الجزائر)، mbendouda@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/29 تاريخ القبول: 2022/02/18 تاريخ النشر: 2022/05/05

ملخص:

تعرض هذه الدراسة، رؤية الفيلسوفة حنة أردنت وموقفها من بعض الظروف التاريخية والعلمية، التي مهدت لانبثاق الحداثة، التي وإن كان لها مزايا، حملت الكثير من المآسي، كإحساس الإنسان بالغربة اتجاه أرضه وعالمه. نشأت حالة الاغتراب من ظروف معينة، مثل انتزاع ملكية الأراضي، اكتشاف شساعة الكون، اختراع التلسكوب. هذه الظروف ليست خطرا في حد ذاتها، لكن انعكاساتها على حياة الإنسان، هوما حذرت منه أرندت، عندما بحث الإنسان عن أكوان أخرى للعيش، وعندما انغمس في إنتاج الموارد الاقتصادية، على حساب المشاركة في الحياة السياسية والعيش المشترك. لذلك كان من الضروري، عدم تخلي الإنسان عن الشروط الأولى التي صنعت الحياة والعالم، والحذر من الانغماس في الحتمية البيولوجية على حساب الاهتمام بالقضايا التي تجمعه مع غيره، لأن باب الاغتراب إذا فتح، فإن الذي يفقده الإنسان ليس العالم فقط، وإنما ذاته، اغترابا عن الذات،وما أوتي من ملكات، مثل ملكة الحكم، للتمييز بين الخير والشر، وعدم السقوط في براثين الشر.

كلمات مفتاحية: استلاب الارض، استلاب العالم، أزمة الحداثة، السياسة، حنة أرندت.

Abstract: The purpose of this study is to expose the reluctance of Hannah Arendt, against some historicall and scientifics evenements , which prepares the coming of modernity. it contened advantages and disadvantages, such as world alienation and earth alienation. arendt asked why some circumstances as the expropriation the exploration of space the invention of the telescope produse alienation , These conditions are not dangerous in themselves.But its repercussions on human life, are what Arendt warned about,When man searched for other universes to live, and when he indulged in the production of economic resources, at the expense of participation in political life and coexistence.Therefore, it was necessary for man not to abandon the first conditions that made life and the world, and to guard against indulging in biological determinism at the expense of concern for the issues that unite him with others.Because if the door of alienation is opened, what a person loses is not only the world, but himself, estrangement from the self, and the faculties he was given, such as the queen of judgment, to distinguish between good and evil, and not to fall into the clutches of evil.

Keywords: World alienation; earth alienation; crisis of modernity; politics; Hannah Arendt.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة :

نحاول في هذه الدراسة، التعرّف على واحدة من المقاربات التي أنجزتها الفلسفة المعاصرة لمشكلة أزمة الحداثة، والتى بلورت في أعقابها الفيلسوفة حنة أرندت تشخيصا لوضعية الإنسان المعاصر. تشخيصا آل بها إلى تفكيك تجليات تلك الأزمة، ووضع اليد على أسبابها ومحاولة فهم الشرط الإنساني، وانجاز قراءة لتاريخ الانسان الغربي، الذي انتهى به الأمر، إلى حالة من التقفّر، مهدت لحالة الاستلاب.توصلت أرندت إلى هذه القناعة، عبر جملة من الظروف، أقواها وأحسمها ظهور الأنظمة التوتاليتارية، التي فككت النسيج الاجتماعي، عن طريق الارهاب والخيال الايديولوجي والحركة المستمرة.

ذلك أنّ النظام التوتاليتاري، عند أردنت قد شكّل قطيعة مع كل الأنظمة السابقة، كما عرفته جهاز حكم، "يمارس التحكّم المطلق، على النشاط السياسي والاقتصادي، وينتهي إلى التحكّم في المجتمع المدني "[1] تكوّن النظام على : فئة السكان أوالجماهير ، تكوّنت على إثر سقوط نظام الطبقات،فأصبحت سهلة الانقياد ، يجتذبها النظام بالدعاية والخيال الايديولوجي والوعود، ولتحقيق الفعالية النفسية، يجب إسناد الايديولوجية بالإرهاب المستمر . أما دور الحركة فهي من أسس التوتاليتارية، التي يتم بها تبرير القوانين الوضعية "قانون الطبيعة عند النازية، وقانون التاريخ عند البلشفية) هي إحدى الوسائل التي تسمح للتوتاليتارية من التملص من وعودها التي قطعتها على المواطنين قبل أن تستلم زمام الدولة، فهي دائمة الانقلاب في قراراتها، إذ هو" نظام في حركة مستمرة "[2]

لقد كشفت أثناء تشخيصها للحداثة الغربية، عن علاقة تلك الازمة، بثلاثة أحداث كبرى، اكتشاف أمريكا والاصلاح الديني واختراع التلسكوب. هذه الأحداث، ليست على خط واحد، من حيث الصدى، الذى تركته بين فئات المجتمع في زمانها. ولكن عواقبها عبر ثلاثة قرون وما خلفته من مظاهر، هوالذي شكل أزمة في حياة الإنسان المعاصر.

تعتقد أرندت أن هذه الاحداث، ذات أثر بالغ وفعال في انبثاق الحداثة واعطائها صورة معينة وطابعا مميزا، هوطابع الاستلاب أوبشكل أدق حالة " الإغتراب " إحساس الانسان بالغربة عن عالمه وإزاء الأرض التي يعيش عليها .

- طرح التساؤل :

كيف تجسدت حالة الاغتراب هذه عند أرندت ؟ وما هي عواقبها على حياة الإنسان المعاصر؟ وهل هناك علاقة بين استلاب الأرض واستلاب العالم ؟

2. معنى الاغتراب Aliénation

2. 1. مفهوم الاغتراب لغة

ورد في معجم صليبا بمعنى الضياع، أي أن الإنسان " يضيّع نفسه عندما يصير غريبا عنها " أي عندما يفقد حريته " [3]

ربط لالاند مفهوم الاغتراب بالارتهان والاستلاب، فقد ذكر بأنه حالة بيع أوتنازل عن حق، لشخص آخر، فالمستلب هوالذي لا يملك ذاته [4]

وبالتالي فالاغتراب هوحالة يشعر فيها المرء بذوبان ذاته وفقدانها وضياعها من طرف آخر، والعجز

2.2. مفهوم الاغتراب في اللغة الفرنسية aliénation

يعود إلى الأصل اللاتيني **"Alienato** "استعملت للدلالة على معانى كثيرة ، وضحها المفكر ريتشارد شاخت، كما يلي : « إن الأصل اللاتيني لكلمة اغتراب هو **Alienato** ويستمد هذا الإسم معناه من فعل **Alienare** بمعنى، تحويل شيء ما لملكية شخص آخر أوالانتزاع أوالإزالة5

مفهوم الاغتراب اصطلاحا : تتعدد وتتنوع استخدامات المصطلح حسب المجال المحدد، نختار منها المجال السياسي ، لأنه هوالاطار الذي يهمنا الحديث عنه في فلسفة أرندت .

المعنى السياسي للاغتراب : يشير إلى شعور الفرد بالانفصال عن النظام السياسي ورفضه (اغتراب الذات)وقد كان كارل ماركس صاحب فكرة الاغتراب السياسي . وقد ربطها بوجود الدولة وطبيعة نظام الحكم، كما ربطها أيضا بأسلوب الانتاج ونوعية الملكية، إن كانت فردية .

بالنسبة لمعنى الاغتراب عند أرندت، فهويدور في نفس هذا الاطار. شعور الفرد بالغربة اتجاه أرضه وعالمه -ليس بسبب نظام الحكم ولكن لأسباب كثيرة منها التاريخية كاكتشاف القارات أوالأكوان ومنها العلمية كاختراع التلسكوب .

ذكرت أرندت مفهومي الاغتراب عن الأرض والاغتراب عن العالم . **l'aliénation de la terre et l'aliénation du monde** في كتابها " الوضع البشري " **the human condition** . تمثلان حالة من الرفض أو انكار، لأهمية الارض التي يعيش عليها الإنسان، كشرط أساسي لحياته، بالنسبة للاغتراب الأول، أما الثاني، الاغتراب عن العالم (عالم الإنسان) فهو تعبير عن انسياق الإنسان وراء منظومة من الإنتاج والاستهلاك ، حوّلته إلى كائن بيولوجي بالأساس، فأبعدته عن أهم نشاط تُفعّل فيه حريته ، ألا وهوالنشاط السياسي ، الذي يتشارك فيه مع الآخرين ويساهم معهم من أجل بناء "عالم "مشترك .

3. <u>الاغتراب عن الأرض</u>

بُعد المكان، إن صح القول أي الأرض، من الشروط التي تكفل حياة الانسان كما ذكر الله في سورة هود «هوأنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(الآية 61) وأي تغيير في علاقة الإنسان بأرضه ، أي

موقف يتخذه منها، سينعكس على معنى وجود هذا الإنسان نفسه، وهوما لاحظته حنة أرندت ، من بين جملة من الظروف، ظهرت في فترة الحداثة، ساهمت في ما أطلقت عليه " الاغتراب عن الأرض " حالة احساس الانسان بالغربة عن أرضه وبحثه عن أكوان أخرى .

أدركت أرندت أنها مسألة مستجدة في حياة الانسان المعاصر، بالرغم من أن الهجرة من مكان إلى مكان، أمر مألوف في تاريخ البشر، لكن هوليس كذلك هذه المرة، هوليس تغيير في المكان، بقدر ما هوتغيير في نفسية الإنسان المعاصر. فقد تملكه إحساس بالنفور منها، ورغبة في الفرار والتغيير.

نتجت عن مجموعة من الظروف التاريخية وحتى العلمية، ولم تكن في حسبان المسؤولين عنها.

إن الأحداث التي كانت سببا في ما تسميه أرندت، الاغتراب عن الارض، l'aliénation de la terre لا تنتمي بالضرورة لما بعد الثورة الفرنسية، وليس هناك بالضرورة ربط سببي فيما بينها، لكنها أحداثا أصيلة ذات وقع مستمر، لها جذورها وزعماؤها المعروفين، مثل غاليليوغاليلي وكبار المكتشفين والرحالة عبر العالم، ومارتن لوثر (بالنسبة للاغتراب عن العالم)

تمثل حالة الاغتراب عن الارض، تغيّر نظرة الإنسان لعالمه الأرضى، بفعل تطور العلم، الذي فتح آفاق الكون، وعرّف الانسان بمدى محدودية الأرض، مقارنة بالكون، عندها تغيّر موقفه منها، حيث أضحت بعد ذلك أقل شأنا وأهون .

من أهم الأحداث التي أدت إلى حالة استلاب الأرض: حدث اكتشاف أمريكا وما تبعه، أي سلسلة الاكتشافات التي عمت الكرة الارضية، وقد كان حدثا مثيرا جدا لكافة الناس، فتح الباب على مصراعيه، للتعرف على كل شبر فوق الكرة الأرضية. أما حدث اختراع التلسكوب الذي أدى إلى ارساء قواعد علم جديد، ينظر إلى كوكب الأرض من منظور خارجي عنها هوالفضاء ، فقد كان له الأثر البالغ في تغيير نظرة الانسان لنفسه، ولعالمه، ونقل الهيبة والعظمة المنسوبتان للذات وللعالم الإنساني، إلى الكون الفسيح .

3. 1. تراجع مكانة الأرض بسبب الاكتشاف شساعة الكون

تعتقد حنة أرندت أن اكتشاف القارات والمحيطات، وكذلك حدث اختراع التلسكوب، الذي سمح باكتشاف ومشاهدة المجموعة الشمسية، قد ساهم في ما وقع فيه الانسان المعاصر من حالة الإغتراب عن الأرض .

بالنسبة للذين عاصروا مرحلة الاكتشافات، فقد كان حدثا في غاية الأهمية والاثارة، لكن ذلك الاعجاب لم يستمر، مع أن الاكتشافات استمرت حتى القرن العشرين . وذلك بسبب أن هناك إلى جانبه حدثا آخر، كان في بدايته ضئيلا خافتا، ثم ما فتئ يتعاظم وتزداد أهميته وتأثيره على نظرة الانسان للأرض ولنفسه.

ذلك الحدث، هوأول محاولة لاستكشاف الكون أوالفضاء، أهميته تجاوزت كل التوقعات، إلى درجة أنه غطى على مسألة التوسع، الذي حققه الانسان بفعل استكشاف القارات والمحيطات، والذي كان

متواصلا آنذاك، تقول أرندت « في اللحظة التي اكتشفنا فيها مدى شساعة مساحة الأرض ، بدأ التقلص المشهور للكوكب ، حيث بدأت المقارنة بين الأرض المنتهية والكون اللامتناهي . حيث تغيرت نظرة الإنسان - في الفترة الحديثة - إلى الأرض الذي يقطنها، بفعل ما توصل إليه من معلومات خاصة بموقع كوكبه من هذا الكون الفسيح وبفعل مفهوم السرعة ، الذي أخذ مكان المسافة، حيث أصبح لمفهوم السرعة السطوة الكاملة على حياة الإنسان المعاصر . وقد تم ذلك ابتداء بفعل تقريب المسافات بين مختلف أقطار الارض، وانتهاء بفكرة الفيزياء الحديثة التي تعتقد بإمكانية تواجد الجسم الواحد، في مكانين مختلفين، فلم يعد حينها للمسافات الأرضية أي اعتبار، أمام ما يسمى بسرعة الضوء، مثلا .

وأين الخلل في ذلك ؟ الخلل كما تشرحه أرندت ، هو في التقليل من نظرة الانسان لكوكبه، وفي القضاء على الأمل الذي كان يحدوالبحارة والمكتشفين المغامرين، في بداية الفترة الحديثة، عندما خاضوا عباب البحار، من أجل اكتشاف ما وراء الآفاق، ولتوسيع الأرض « لم تكن في نية هؤلاء تقليص المسافات »[6]

لقد شرحت أرندت ، التطور الذي حققه الإنسان المعاصر، عندما تمكّن من قياس ومعرفة كل تفاصيل الكوكب الذي يعيش عليه، وأصبح في متناول كل من يريد المزيد من المعرفة عنه، ومن قبل ، كانت السكك الحديدية والسفن البخارية والطائرات، قد مهدت لفعل تقريب المسافات، أوبالأحرى كما تقول أرندت « تضييق المكان » le rétrécissement de l'espace[7] وما المشكلة في ذلك ؟ تعتقد أرندت أن في ذلك، بداية لاغتراب الانسان عن أرضه، وبداية للتحوّل الذي استمر طوال فترة الحداثة.

لقد لاحظت أرندت،أن الانسان المعاصر فقد تعلقه بأرضه، تراجع الحب والحميمية ، اللذان ربطاه بعالمه الأرضي وتراجع التفاؤل، الذي سكن جنانه حيال هذا العالم، عندما رغب في كشف مداه والوصول إلى كل مخبإ فيه، وكان اضمحلال ذلك الأمل وضياع ذلك الحب ، غير منتظر، نتيجة انفتاح آفاق الكون أمام ناظري الإنسان، متخطيا بذلك ما كان في متناول يديه، ومعتزا بكل شبر فيه، أصبحت الأرض بكاملها ، لا تساوي شيئا، أمام هول وشساعة الكون ، بكواكبه وشموسه . هنا كانت النكسة الأولى، لإنسان يعيش في عالم أرضي قد هجره نفسيا .

لقد كانت هذه الفكرة أول ملاحظة بدأت بها أرندت مقدمة كتابها the human condition الذي أصدرته بالانجليزية (الوضع البشري)، حيث طرحت سؤالا : كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى حد يرغب فيه عن أرضه ؟ موطنه، مسكنه ؟ لماذا الاصرار على مغادرة الأرض، نحوآفاق ما زالت مجهولة ؟ كيف وصل الإنسان إلى هذه الأمنية ؟ هي تساؤلات طرحتها أرندت ، بعد ما شهدت ردود فعل بعض الأفراد ، عقب ارسال قمر صناعي لاول مرة سنة 1957، لقد أثار الحدث ارتياحا كبيرا وفخرا لم

يخامره أدنى شك اوريب، أن يرى الانسان شيئا من صنع يديه، يجاور كواكب السماء ويسير في أفلاكها .

وكان التعليق، الذي أثار اهتمام أرندت آنذاك، هوأن يعدّ حدث إطلاق القمر الصناعي «خطوة لهروب الانسان من سجن الأرض »[8] هوتعليق أطلقه أحد الصحفيين الأمريكيين، لم يكن ذلك التعليق، تقول أرندت، إلا تعقيبا لما كتب من قبل، على ضريح أحد العلماء الروسيين : « لن يستمر التصاق الإنسانية بهذه الأرض » [9]. لم تكن تلك الملاحظة جزافية ولا سطحية، بل كانت عند أرندت أعمق كلمة، يمكن أن تصور لنا حالة الإنسان في الفترة المعاصرة، ذلك التعليق في حقيقته ، يعد تلخيصا لإحساس جديد أحلّ في ذات الإنسان المعاصر. وهواعتبار الأرض -الأم سجنا .

ذلك الحكم، لم يكن زلة لسان من صحفى ، بل الأصح أنه عكس رأي كثيرين ممن عاصروا الحدث، تساءلت أرندت، لماذا التحرّر من الأرض وهي أول شرط لوجود الانسان ؟ الأرض التي هي مسكن وموطن الإنسان ولا يعرف غيرها، الأرض التي احتوته وآوته وأطعمته ولا يخرج منها إلا مكرها، أصبحت منبوذة مرفوضة . تتساءل أرندت، كيف توضع الأرض في قفص الاتهام وهي أول شرط لحياة الانسان ؟ وهل من سبيل لتغيير الشرط ؟

لم تصل الانسانية أبدا لمثل هذه الرغبة أبدا، لا في العهود التي عرفت الاستعباد ولا الحروب ولا المجاعات، بل كان الصراع من أجل البقاء فيها والعلوعلى الأنداد، أوالخلود ولوبالأعمال والبطولات، كما كان عند اليونان، هوالمعروف تاريخيا، كل الحضارات التى مرت بها الإنسانية تتقاسم صفة التشبث بالأرض، حتى بعد الموت، والأمل في عودة الحياة كان على نفس الأرض، كما كان عند القدماء المصريين.

هووضع شاذ، فهمته أرندت، وأدركت أبعاده، وشرعت تبحث عن الأسباب، التي وطنت هذا الاحساس، في نفسية الانسان المعاصر، خاصة أن هناك جملة من الحوادث، تعد من المآسي، عاصرتها أرندت، عن كثب لم تجد لها مبررا، مثل ظاهرة الانتحار وتعرض بعض فئات المجتمع للاضطهاد والقتل الجماعي بدون مبرر ... لا غرابة عند أرندت، هي كلها مظاهر تعد من روح هذا العصر، وقد تجسدت في أمور كثيرة، تنم عن انقلاب في المفاهيم التي كان يؤمن بها الإنسان من قبل .

تقول أرندت بأن إنسان المستقبل يبدو أنه « ثائر ضد الوجود الإنساني كما هو معطى ..أو كما هو موجود، ويريد أن يبدله بمنتوج من صنع يديه» [10]، وكأن الانسان يريد أن يعيش في شروط اصطناعية .عند أرندت هو إحتمال وارد، بما أن التكنولوجية المتقدمة قد برهنت على إمكانية القضاء على كل أصناف الحياة، بواسطة التفجيرات النووية ، لو قرر الإنسان ذلك يوما، ولما لا، حتى أنه بإمكانه أن يبرمج انسان بمواصفات أخرى ...

3. 2. اكتشاف الفضاء وانكفاء البعد الانساني

لقد كان لحادثة غزو الفضاء، أثرا بليغا في دعم رغبة الانسان الحديث، في التخلي عن هذه الارض، والبحث عن بدائل لها ، لم تكن مبررات ما يعرف بغزو الفضاء كافية لانطلاق تلك الأبحاث بكل نهم، لولم يجد الانسان المعاصر، القناعة الكافية في قرارة نفسه، بأنّ هذه الأرض ، لم تعد تناسب طموحاته في التوسع وفي امتلاك مساحات أكبر وفضاء أوسع .

هي من الأحداث التي صبغت تفكير إنسان فترة الحداثة، تحوّل فيه اعتزازه بأرضه بمسكنه وبما حظي من امتيازات ومن صلاحيات إلى انتكاسة وانكسار في نفسه، لكون أنّ هذه الأرض التي كان يعدها قمة في الكمال والعظمة والرحابة، هي لا شيء، أمام الكون الفسيح اللانهائي، بحيث أنّ ما كان يعده امتيازا وقوة، أصبح وهما وغفلة. تساءلت أرندت عن سبب هذا الانقلاب، في نظرة الانسان لكوكبه، ما سبب هذه الانتكاسة؟

تعتقد أرندت أن علماء فترة الحداثة، قد تخلصوا من الأسئلة، التي تقحم مسألة الإنسان في كل طرح، بعد أن تعلموا من التجارب المخبرية، أن الظواهر لا تنكشف من خلال الحواس، واقتنعوا أن اللغة العادية، لغة الكلام، عاجزة عن نقل الواقع، الذي يرونه في المخابر، والأبعد من ذلك أن التطور العلمي الحاصل، قد أوصل العالم إلى قناعة أخرى، هي استحالة رؤية اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر بالآلات، التي تم تطويرها بطريقة مذهلة .

لذلك، إذا كان من المستحيل رؤية تلك الظواهر، فإنّه يحق لنا أن نتساءل، وكيف نثق فيها؟ هل تعد بحق " ظواهر " أي تظهر لنا، تتساءل أرندت، وتقول على لسان ماكس بلانك، لا، بل هي مجرد « رسل خفية من العالم الواقعي »[11] mystérieux messagers du monde réel فهي ليست ظواهرا بالمعنى الحقيقي، لأننا لن نلتقي بها أبدا، لا مباشرة بحواسنا ولا بالوسائل المطوّرة من أجل ذلك .

هكذا ازداد الشك واللايقين في ما كان يعرفه الانسان ويثق فيه، دون أن يكون هناك إمكانية، لأن يحصل على بديل له في المستقبل فيتثبّت منه أيضا .

هذه هي خلاصة تطور العلم الحديث عند أرندت، لقد كان تطور الفيزياء على حساب تطور علاقة الإنسان بواقعه الحي المباشر، الذي أصبح بعيد المنال، سواء في صورته الصغري (اللامتناهي في الصغر)أوصورته الكبرى (اللامتناهي في الكبر) . وكانت نتيجة ذلك هوإقرار العلماء بضرورة التخلي عن الأسئلة التي لها صلة بالحياة، « مثل : ما طبيعة الإنسان ؟ وما هي مكانته في الأرض ؟ ما هوهدف العلم؟ ولماذا يبحث الإنسان عن المعرفة؟ أو أيضا ما هي الحياة؟ وما الذي يميز حياة الإنسان عن الحيوان؟ » [12]

هذه الأسئلة ليست في عداد الأسئلة العلمية، بل هي من الأسئلة الميتافيزيقية، ولا يريد العلماء زجّ أنفسهم فيها، فهي لا تحظى بالاجابة التي يتحقق فيها إجماع المفكرين، تقول أرندت هي طرح مستمر، بالرغم من أنها أسئلة تنتمي لميدان ما قبل العلم، وقد كان طرح هذه الأسئلة من قبل، أمرا

مشروعا قبل أن يثبت العلم الحديث انتصاراته وتجسيداته، وقد انعكس بصورة سلبية على تلك الأسئلة التي أصبحت لا معنى لها [13] . لقد « أعاد . تقول أرندت . العلم الحديث تشكيل رؤيتنا للعالم، الذي نعيش فيه و بصورة جذرية، إلى درجة أننا نستطيع الحكم على الذين لم يطّلعوا على تلك المستجدات ، في العلوم من غير المتعلمين والإنسانيين، في حالة ثقتهم بما يسمى الحس المشترك والتواصل باللغة العادية اليومية، بأنهم فقدوا صلتهم بالواقع »[14].

هذه هي التهمة التي تُوجِه بها لمن يتناول مسائل الحياة والإنسان، ولمن حدد أهدافا تخدم الإنسان، وتضع شؤونه كأولويات، وحتى لوكان هناك تصريحا بهذه النية، فليس الامر دائما ممكنا، والحقيقة أن العلم هوالذي جسّد بالفعل ذلك الهدف، وحقق تلك الرؤية في واقع حياة الناس، عندما مكّن الإنسان من أن يجوب أجواء الارض ويخرج إلى الفضاء .

وهنا يمكن أن نتساءل مع أرندت، هل يعقل أن نعيش في عالم لا يفهمه إلا علماء الطبيعة، دون سواهم وهم القلة القليلة ؟ وتكون لهم القوامة على أغلبية المفكرين، أي الإنسانيين من رجال الأدب والفلاسفة والفنانين؟ .

عن هذه الفكرة، يجب الاشارة إلى أن أرندت، دائمة الاستشهاد بمجموعة من الأدباء والمفكرين الذين كان إحساسهم، بل حدسهم بما يعانيه الانسان عاليا جدا، وكانت قدرتهم على وصف الواقع فائقة، اتخذت أرندت بعضهم منارة تسترشد بها في كثير من مواقفها ورؤاها، مثل " فرانس كافكا " Franz Kafka و"روني شار" René Char و"هيرمان بروخ " Hermann Broch و" افرايم ليسينغ Ephraim Lessing، فقد اقتبست عبارة " الازمنة الظلماء " من معاصرها الشاعر " برتولت بريخت " Bertolt Brecht لتعبر عن هذه الفترة من التاريخ، التي عرفت فيها أوروبا الفوضى والجوع والمجازر والقتل والثورة على الظلم واليأس [15]. فتشجعت من أجل فهم وضع الانسان في الفترة المعاصرة، خاصة بعد حلول التوتاليتارية .

لقد كانت أرندت مفكرة واسعة الاطلاع، على كل المجالات: علمية رياضية اجتماعية وحتى التاريخية، فجاءت تحليلاتها على نمط خاص، من الربط بين تلك المجالات والاتيان بمقترحات في هذا السياق . فهي لم تر في التفريق بين عالم الطبيعة، الذي وصل إلى مستوى عالى من التجريد، وصاحب المعرفة القائمة على الحس، مبررا مقبولا لديها، لكون الأول لم يستغنى عن المعرفة الحسية في بداياته، قبل أن يخوض فيها بشكل دقيق في مخابره، فالمعرفة الحسية ضرورية في البداية، فهي التي سمحت للعالم لأن يصل إلى ذلك النوع من المعارف، التي كشفت عنها المجاهر والمناظر الفلكية، إلى حد تبدوفيه وكأنها لا علاقة لها بما نعرفه بواسطة الحواس .

والمشكلة التي أوقع العالم نفسه فيها، كما ترى أرندت ، هي أنه قد تخلى أواستغنى عن جزء من تكوينه، وهوقدرته على الادراك البشري أوالفهم البشرى entendement humain عندما يدخل العالِم إلى مخبره ، وتكون الرياضيات هي لغة التعامل والتواصل [16] . هي حالة من فقدان الثقة في معطيات

الادراك الحسي، وهي احدى المشكلات التي انجرّت عن العلم الحديث، بعدما تخلى عن مركزية الأرض، اصطدم بعقبات معرفية، فقد أصبح العلم قائما على حدين عصيين على الادراك البشري، هما: مفهوم اللامتناهي في الكبر، ومفهوم اللامتناهي في الصغر، مفهومان يصعب تصورهما وقد أشار العلماء إلى أن العلم الحديث يبحث عن أمور مستحيلة التطبيق [17] .

ومن المسائل الدقيقة التي توصلت إليها أرندت، أثناء تحليلها للتطور، الذي حصل في العلوم الفيزيائية، هي أنها لم تقم على المرجعيات القديمة، التي حافظت على ثبات نظام الارض والكون والتي كانت ، إن شئنا القول ، مقيدة باعتبارات إنسانية مثل البساطة la simplicité و الجمال la beauté والانسجام L'armonie [18]، المهم أنها نظرية مشدودة إلى نوع من المعقولية الانسانية، أوربما يمكننا أن نقول أنها نظرية لم تتجاوز إمكانيات الفهم البشري ، وما أوتي الإنسان من عقل ومنطق .

أما العلم الحديث، فهوعلم يريد التضحية بمبدإ السببية ، كما تنص عليه نظرية الكوانتا لبلانك 1947/1858 (Planck) quanta وما انجّر عنها من فوضى وضياع للتوازن في الكون .

نلاحظ هنا، كيف بدأ حدث انسلال الانسان المعاصر، من مقتضيات عالمه الأرضي أوتراجع تلك الثقة، في امكانياته البسيطة التي تسمح له بان يعرف ويكتشف المزيد من الحقائق، تلك الحقائق التي يمكن أن يتقاسمها مع كل إنسان، والتي ستنشئ فيه، احساس النصرة والقيمة والتفوق والمزيد من الهمة ، لكشف خفايا هذا العالم . ولقد حل محل ذلك، عالم جاف، لا يفهمه إلا العلماء، الذين تجاوزوا اللغة العادية ومعطيات الحواس ، ليتعاملوا بمنظومة من الرموز، تبقى حبيسة أذهان هؤلاء العلماء، دون القدرة على تقاسمها مع غيرهم من غير العلماء .

هذا من بين ما تعده أردنت، انتقاصا وتراجعا، في مستوى ودرجة انسجام العلاقات بين الافراد، لأنّه يخلق بينهم فرقة وانشقاقا، وإن على مستوى المشاعر والأفكار.

لقد أجبر العقل على التخلى عن ظروفه الأرضية، إن جاز القول، هكذا علقت أرندت على التطور العلمي، الذي كيّف أوبالأحرى استبد بذهنية الانسان المعاصر: « لقد اجبر العقل على استدعاء قوة المخيلة والتجريد، الذي رفع العقل البشري، خارج حقل الجاذبية الارضية، إلى نقطة ما في الكون ...» [19] لقد بدأ ذلك في الخمسينيات من القرن العشرين .

بدأت مسيرة العقل تلك، بنوع من الافكار لم يسبق لها مثيل، فقد تخيّل كوبرنيك ، أنه يقف فوق الشمس ...يراقب الكواكب [20]، فيما بعد استطاع نيوتن أن يواصل الفكرة، أويعبّر عن هذه الفكرة عبر قانون الجاذبية ، التي شرحت حركة الكواكب وحركة الأشياء فوق الارض، وكان ذلك باعتماد الشمس كنقطة ارتكاز ، لكن عندما جاء اينشتاين بنظرية النسبية العامة، تعمق دور الخيال والتجريد ، إذ أنه انتزع ذلك المركز(عند كوبرنيك ونيوتن) وجعله في أي مكان في الكون (النسبية العامة)

في هذا الانتقال الرهيب، تتساءل أرندت عن أي الأدوات أو الوسائل المستعملة، تقول : كل ذلك تم بفضل « تصريف قوة التجريد والتخيّل » [21] التي ابعدت تلك الحقائق عن الحس المشترك، وكما تقول

أرندت، لولا التقنيون الذين أعادوا الاتصال المفقود بين عالم الحواس وصورة العالم في الفيزياء، لبقيت الحقائق التي يقولون بها في حكم المجهول، لأنهم استطاعوا على الأقل تجسيد تلك الحقائق، على أرض الواقع، وجعل بعض من تلك الحقائق العلمية في متناول الحس . ومع ذلك بقى البعض منها يتحدى حواس الانسان ومنطق عقله، مثل: « مفارقة التوأمين » لأنشتاين، التي تنص على أنّه لوسافر أحد التوأمين إلى الفضاء الخارجي، بسرعة الضوء، فإنه عند عودته، سيجد أخاه التوأم أكبر منه أوأن يجد ذكراه لدى أحفاده [22] .

لم تكن في نظر أرندت، قضية التنازل أو الاستغناء عن معطيات الحس المشترك، سوى التمهيد أوالمقدمة، لتتراجع مكانة الانسان في العالم . لا تناقش أرندت قضية الانجازات العلمية، التي أدت إلى تحسّن الوضع المادي للإنسان، فهوأمر لا يمكن انكاره . ولكن بالمقارنة لما فقده الإنسان، من قيمة واعتبار ومركزية، يبدوأنّه شيء مستهان، خاصة بعد أن استرسل العلماء، في انجاز تجاربهم النووية دون تحفظ ، مع علمهم بالعواقب الوخيمة التي قد تعود على حياة البشر.

تريد أرندت أن يكون هناك حلا، على مستوى الانسان، بعدم اتخاذ الكون نقطة ارتكاز للتعامل مع الأرض، بل يجب أن يكون هناك تغييرا للمنطلق، أي من الأرض وبإمكانيات الأرض، وليس بإمكانيات الكون، لأنها هائلة ومدمّرة، والتعامل معها خطير، بل هوغير مضمون النتائج، بما أن العلم في بداياته .

ومن هذا نجد أن هيزنبرغ أكّد على مبدأ اللاحتمية، عندما درس حركة وموقع الالكترون في الذرة، فتوصل إلى أن تحديد الحركة يشوش على الموقع ، والعكس أيضا . من هنا أقرّ بمبدأ اللاحتمية في مجال الظواهر اللامتناهية في الصغر . والحل الذي اقترحه آنذاك هوأن «نحدد باختيارنا نوع الملاحظة، أوأي مظهر من الطبيعة نتتبع وأي مظهر نترك »[23] لأن في الفيزياء النووية الحديثة . يتابع هيزنبرغ . هناك إمكانية لتطبيق أنواع مختلفة تماما من القوانين الطبيعية ، على ظاهرة واحدة، دون أي تناقض، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، لن تستجيب لحاجات الإنسان الأساسية .

يمكن لنا أن نستنتج، أن العلم الحديث في طموحه للوصول إلى خفايا أشياء هذه الأرض أوهذا الكون، غابت عنه الفائدة المرجوة، من ذلك العلم ، على حياة الإنسان .

3.3 . أثر اختراع التلسكوب ، الشك في الحواس

عندما نشرع في الحديث عن فترة الحداثة، لا يغيب عن ذهن أحد ارتباطها بالتطور العلمي والتكنولوجي، الحاصل في أثناءها، وأما عن السبب الذي فجّر تلك الانطلاقة الحثيثة، التي تتابعت حتى يومنا هذا، فتقول حنة أرندت، أنه كان بفضل اختراع أداة التلسكوب .

لقد كان لاختراع التلسكوب انعكاسات خطيرة ومهمة على حياة الانسان المعاصر، لم تقدّر نتائجها، إلا بعد أن عاينها الإنسان عن كثب بعد قرنين من الزمن . وليس المقصود ها هنا ما انجّر عنه من تسهيلات ، أي تمكين العلماء ، بوسائل فعالة وناجعة لإجراء التجارب، ولكن المقصود منه، ما انجّر عنه من تغيير في نظرة الإنسان لنفسه وللحقيقة العلمية .

لقد غدت الحقيقة العلمية بعد ايجاد التلسكوب، مرهونة بآلة من صنع يد الانسان. عند بداية الحدث، شعر الانسان بالفخر والتمكين، فهي وسيلة كفيلة بأن تسهّل عليه مهامه، لكن ما لم يكن في الحسبان، هوأن تتغير نظرته لنفسه، لأنّه بالموازاة مع تقدم الابحاث وتحقيق الدقة في ذلك ، فقد الثقة في حواسه، عندما انتقلت إلى أداة ، كانت في البداية مجرد أداة مكملة للحواس . وقد استمر وقع وصدى ذلك الاختراع، وامتد على مدى ثلاثة قرون . وعن أهميته، تقول أرندت، هو يشبه حدث ميلاد المسيح، الذي قسم تاريخ البشرية ، إلى قسمين عظيمين مختلفين كل الاختلاف، هذا ما فعله حدث اختراع التلسكوب .

لقد قسم حدث اختراع التلسكوب تاريخ البشرية إلى قسمين ، إن شئنا هذا التقسيم، على المستوى العلمي أو التقني، بحيث كان سببا في انفتاح عهد جديد في العلم، حقق أو كان سببا في تحقيق، في فترة لا تتجاوز قرنين من الزمن، أي القرن الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، ما لم تحققه الانسانية على طول تاريخها، إذا حددنا التاريخ الميلادي فقط فهوأكثر من سبعة عشر قرنا . لقد حقق العلم بانجازاته تقريبا كل الاحلام التي راودت الانسان، ربما منذ زمن بعيد وانتشلته من الارهاق وبذل الجهود المضنية والتعب وبعد المسافات وبطء الحركة والانجاز وشح الطبيعة .... الخ، والتي كانت سمة عصور ما قبل التلسكوب، هذا أمر واضح للعيان لا يخطئه أحد .

أما الأمر الثاني الخفي ، الذي تبع هذا التقسيم، فهوتقسيم على المستوى البشري أوالإنساني، هوتنامي شعور باليأس و بالعدمية ،وهوأهم ما طبع الفترة الحديثة بقوة . لم يكن ذلك الشعور واضحا في بدايته، لكنه مافتئ يتوسع وينتشر بين جموع المواطنين . وقد كانت البداية عند بعض الشعراء وبعض المفكرين [24] الذين استشعروا خطر التغيّر، وقد أشرنا إلى البعض من هؤلاء .

هذه القضية عند أرندت، مرتبطة أساسا بفكرة الفيزياء الفلكية، التي جاء بها غاليلي، والتي وضعت قدرة الإنسان على الملاحظة، موضع تساؤل، إلى الحد الذي جعل البعض يعتقد، أن كل ما نعرفه عن الكون، مرتبط أساسا بما تسجّله تلك الظواهر على أجهزة القياس.

في نظر أرندت سمحت الآلة التي صنعها غاليلي بأمرين متناقضين، الأول هوتحقيق أمنية أرخميدس، الذي طالب بنقطة خارج الأرض، تمكنه من رفعها. وبالفعل تمكّن الإنسان، من استحداث طاقات مهولة على الارض وأمور كثيرة تلاعب بها ، وكأن الأرض في قبضته ، أي أن حلم أرخمدس تحقق أخيرا . والأمر الآخر، هو تخوّف الإنسان من سرعة فقدان ثقته في حواسه، مصدر تعرّفه على واقعه المحيط به وانكشاف عالمه .

لذلك كانت معرفة الإنسان بالكون، في مداه البعيد، على حساب تقلص أو تراجع معرفته بواقعه القريب، المحيط به فعليا. ليس المقصود ههنا المعرفة، كمعرفة، ولكن شرعية هذه المعرفة الحاصلة بالحواس، بعد أن تم اثبات قصورها وعجزها في كثير من الأحيان.

تؤكد هذه القضية، أمرا مهما، في سياق فكرة ما جناه الإنسان، من وراء تقدم التقنية، وكل التطبيقات التي جاءت بها، كما ذكرناه، استحداث طاقات مهولة على الأرض، أوصنع محركات تنطلق بالطاقة النووية تقترب من سرعة الضوء ... إلخ . الأمر الذي تؤكده،هذه القضية هوأن منطلق تعامل الإنسان مع الأرض، أي الكوكب الذي يعيش عليه، تغيّر وتحوّل من منطق الأرض المحدودة، إلى منطق الكون الفسيح .

وهنا يجب أن ندرك أن هناك تغييرا، في نظرة الإنسان للكوكب الذي يعيش عليه. بحيث أنّه قبل اختراع التلسكوب، في العهود التي سبقت، كانت الأرض في اعتقاد السابقين، مركز الكون، والشمس هي التي تدور حول الأرض . ولا تعنينا هنا الحقيقة الفلكية . فالأرض هي مقر ومستقر الإنسان الأول والأخير. ويجب الإشارة إلى أن الاعتقاد بمركزية الأرض وسيادة الإنسان عليها، جعل كل ابداعاته وانجازاته تستهدف الإنسان، تخدم مصالحه تحفظ له وجوده، بل تحفظ له ذكراه، فقد كان الإنسان هو الغاية، والحياة على هذا الكوكب هي المكسب.

لكن ايجاد آلة التلسكوب، التي فتحت أبواب الكون المغلق، تسبب في تقزيم نظرة الانسان للأرض وجعل المرجعية التي كانت تحوز عليها، تنسحب منها، لتنتقل إلى الكون الفسيح، بل وأكثر من ذلك، لتدخل هي تحت لواء هذا الكون، فهي في النهاية ليست إلا كوكبا ضمن مجموعة من الكواكب ليس إلا . حتى أن الانسان أصبح يفكر في إمكانية الانتقال إلى كوكب آخر، وهجران الأرض، أرضه .

والمهم في هذا التحوّل، هو تراجع أو تقلص الاهتمام والعناية الموجهان للإنسان وللأرض التي يعيش عليها، أو بمعنى آخر انتزعت الهالة التي كانت محيطة بالإنسان، وبشرط وجوده وحياته، وهوالأرض التي يسكنها .

حدث هذا، عند التنازل عن فكرة مركزية الأرض، لصالح مركزية الشمس، أول الأمر، ولكن مع التطور العلمي والتكنولوجي لما يعرف بالفيزياء الفلكية، التي كشفت عن شموس وكواكب أخرى أبعد وأكبر من مجموعتنا الشمسية، ضاعت مركزية الشمس أيضا . وهكذا بعد أن ضاعت مركزية الأرض ، وتبعها ضياع مركزية الشمس، أصبح الإنسان . كما تقول أرندت . بإمكانه « أن يجوب أجواء الكون بحرية ليختار هوأي نقطة يتخذها كمركز لتحقيق هدف ما ، وهوما تجسد فيما بعد في نظرية النسبية العامة لأينشتاين .

هل سيستمر تبجيلنا للعلم وللأدوات التي جاء بها ، عندما نعلم أنها كانت سببا في تنازل الإنسان، وبكل بساطة، عن شرط من شروط استمرار تواجده على أرضه ؟ ليس المقصود ههنا التواجد الجسماني، فالحيوانات والحشرات، بأعدادها الهائلة متواجدة أيضا، وهذا لا يهم ، عند أرندت، بل التواجد الإنساني، بمعنى العلائقي، التواجد الذي يبني العلاقات ويبني عالما مشتركا، يكون كقلعة يحتمي فيها الكل، دون إقصاء لأحد . التواجد الذي يؤسس " للخلود " الارضي كما كان عند اليونان .

التواجد الذي يُحترم فيه كل فرد، بما يملك من خصوصيات، فالخصوصيات كنز للجميع، لأنها هي التي تحدث التكامل، كما ذكرت أرندت، لولا التمايز لما احتاج أي فرد لأي فرد آخر، لذلك كانت صفة التعددية البشرية la pluralité هي من ضمن المعاني، التي بفضلها يستمر تواجد العالم، فالعالم لا يبنيه إنسان ولكن الناس .

4. الغربة عن العالم

من أهم الأحداث التي أدت إلى حالة استلاب الانسان، عند أرندت، حدث الاصلاح الديني في أوروبا، الذي أدى إلى انتزاع الملكيات التابعة لرجال الدين، والذي كان حاملا لأمرين في الوقت نفسه : انتزاع الملكية الفردية وتراكم الثروة الاجتماعية[25] l'expropriation individuelle et de l'accumulation de la richesse sociale

1.4. أثر انتزاع الملكيات بعد الإصلاح الديني

حمل الاصلاح الديني، عند أرندت إحدى صور اغتراب الانسان في الفترة المعاصرة، معتمدة في ذلك على تحليلات "ماكس فيبر" في كتابه " الاخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية " الذي وصف فيه هذا الاغتراب " بحالة التقشف والزهد في العالم " [26] L'ascétisme dans-le-monde كمصدر أساسي لفهم الذهنية الجديدة للرأسمالية . لقد أثبت أن حالة الاغتراب (الزهد في العالم)، التي يعاني منها الانسان، في المجتمعات الاوروبية، لا تكمن فقط في مصدرها التاريخي، الناتج عن جهود كل من "لوثر" و"كالفن " من أجل إحياء العقيدة المسيحية وإعادة الثقة في يوم الحساب، بل تكمن أيضا، في اختفاء طبقة الفلاحين، الناتجة أساسا عن انتزاع الملكيات الخاصة التابعة للكنيسة ، بعد حركة الاصلاح الديني، والذي أدى مباشرة للإطاحة بالنظام الاقطاعي .

ترى أرندت أن انتزاع الأراضي من أيدي مالكيها، كان له الأثر البالغ على الفئات الواسعة، حيث كانت مصدر رزقها. وتسبب في القضاء على احساس الأمان في هذه الحياة، والذي تعده أرندت « الشرط السياسي الأول للشعور بالانتماء للعالم »[27] فافتقاد وسيلة العيش يصرف الأفراد عن أشياء كثيرة مهمة في حياتهم، كالاهتمام بالشأن السياسي، وهو الذي عمّق ظاهرة الاغتراب، كسلوك وصفت به الذهنية الرأسمالية، مهد لعملية تكديس الثروة والتوسع اللامحدود للنشاط ، الذي يستجيب للمطلب البيولوجي processus vital

فحالة انتزاع الملكيات التابعة للكنيسة، عرّض طبقة الفلاحين الواسعة لتقلبات الزمن والحياة. وجعلها تقبل على العمل ومضاعفة الجهود، من أجل ضمان العيش، متناسية ما هوأهم من ذلك، وهو إحراز مكانة في العالم، عن طريق المساهمة في الفعل السياسي .

إذن ظروف الطبقة الكادحة، هي التي أوجبت حالة التراكم في الانتاج، لأن المطلب الحيوي اليومي، في الإنسان لا يتوقف ولا يتراجع. يتطلب دائما مضاعفة الجهود، في ظل غياب الضمانة الوحيدة، وهي قطعة الأرض، وهذا الذى أدى إلى فتح شهية المستخدمين، من أجل توسيع استثماراتهم أيضا ، والتي

كانت في صالحهم وحدهم ، دون أن تنال منها الفئات الواسعة من العمال شيئا، وهوالأمر الذي كرّس ذلك الاغتراب كما شرحه كارل ماركس . بحيث توسعت دائرة المستَخدَمين .

لم يتولد عن مضاعفة الانتاج . كما تقول أرندت . إعادة توزيع الممتلكات، ولم تتوقف عملية الانتاج عند تحقيق الاكتفاء الذاتي، بل استمر هذا الدافع لمضاعفة الانتاج، دون احتمالية توقيفه، أو تراجعه، هو أشبه ما يكون بالدافع البيولوجي، والسبب في ذلك هو المنطلق الذي سمح به وهو«الاغتراب عن العالم » l'aliénation par rapport au monde [28]

« إن هذه السيرورة، أي تراكم رأس المال، لا تستمر إلا بشرط نزع صفة الاستمرارية في الاشياء la durabilité والحيلولة دون ثبات هذا العالم stabilité de-ce-monde ، وهذا يتم بتجديد الأشياء . وهنا تظهر مسألة أخرى لم تكن في الحسبان، وهي ضرورة اخضاع المنتجات وكل أشياء العالم، لمسار التجديد الدائم ، مما يستوجب تعريضها للتلف، وهو الذي يفقد الأشياء صفة الثبات .

بمعنى آخر أن مسار تراكم الثروة، وفقا للعملية البيولوجية، التي تخضع لها حياة الانسان، توسعت على حساب " العالم " [29] والانتماء للعالم [30]» .

«Ce processus - de l'accumulation du capital - ne peut continuer qu'a condition de ne laisser intervenir ni durabilité ni stabilité de-ce-monde , et d'y réintroduire de plus en plus vite toutes les choses de ce monde , tous les produits du processus de production . Autrement dit , le processus de l'accumulation de la richesse [….]stimulé par le processus vital puis stimulant la vie humaine , n'est possible que si l'homme sacrifie son monde et son appartenance -au- monde .»[31]

ومعناه، أن فقدان بعض فئات المجتمع، للمورد الاقتصادي الآمن، لا يسمح لهم في التفكير في الأمور الأخرى، الخاصة بالمساهمة الجدية في الأمور السياسية، لأنهم محكمون بمبدأ السعي لتجميع الثروة عندما انتزعت من الأفراد الحماية التي كانوا يتمتعون بها لكونهم ينتمون لأسر مالكة لأراضي زراعية، تحوّل مطلب الاستجابة للضرورة، القائمة على الفرد كشخص ضمن عائلة، إلى مهمة يتكفل بها المجتمع .[32]

واضطلع المجتمع بمؤسساته الاقتصادية والادارية، بالتكفل بالمهام الموكولة سابقا للأسرة، وظهرت أمورا جديدة، للربط بين أفراد المجتمع، حلت محل الروابط الطبيعية بين أفراد الأسرة الواحدة، مثل الانتماء للوطن الواحد وللعرق الواحد، كبدائل تسمح بالإبقاء على تماسك الأفراد. من هنا بدأ التمايز بين الأفراد إلى حد إرساء قواعد، لتتكوّن الطبقية الاجتماعية، مع التطور الصناعي الذي كان العمود الفقري، الذي انطلق منه النظام الرأسمالي.

عندما توقف الدور الذي لعبته العائلة في الماضي (الاستجابة لضرورة الحياة)، وتحوّل إلى وظيفة يتكلف بها المجتمع، تسبب ذلك في تعميق أسباب التفرقة بين الأفراد، كما استغنى على العناصر الأساسية للشعور بالانتماء لمؤسسة منسجمة، أي العائلة، على اساس امتلاك قطعة أرض والانتماء لنفس الرابطة الدموية ، عوِّض ذلك كله بمفهوم " الاجتماعي " le social . وكان اساس الجمع بين

افراد المجتمع، لتوحيدهم على غرار وحدة العائلة، هوعنصر التشابه والانسجام بين الافراد المتشبثين بنفس الارض . وهو الذي سمح بإرساء قواعد الانظمة الوطنية في أوروبا، القائمة على تعيين حدود البلد والمنطقة التي تسيطر عليها. وهومن بين الأمور التي مهدت لميلاد . ما تسميه أرندت . الدولة القومية ، في أوروبا، التي لعبت دورا أساسيا في ميلاد ظاهرة العنصرية وظاهرة اللاجئين في أوروبا .

التطور الثالث في هذا الاغتراب، كان بسبب التحوّل الذي اعترى مفهوم الأنظمة الوطنية وتحوّلها الى مفهوم آخر هو" الانسانية " فقد خرج هذا المفهوم إلى الوجود بعد أن تسارعت العلاقات بين الافراد عبر القارات رغم بعد المسافات، ورغم ما تحقق من زيادة في الثروات، جراء التوسع الاقتصادي، فان حالة الاغتراب ما فتئت تتعمق ، لأن إدّعاء الانتماء للإنسانية محض خيال، تقول أرندت « لا يمكن للإنسان أن يكون مواطنا في العالم مثل ما يكون مواطنا في بلده »[33] .

تعرضت أرندت لهذه الفكرة، في المقال خصصته لكارل ياسبرس، شرحت فيه ، أنه لإحساس المواطنة، كمفهوم سياسي، شروط : وهي التعددية والتنوع ،(أي تعددهم وتنوعهم بما يملكون من صفات في دولة بعينها) . فالمواطن هومواطن ضمن مواطنين آخرين، في بلد ضمن بلدان أخرى . وحقوقه وواجباته محددة في اطار حقوق وواجبات الآخرين، في بلد بعينه، وخصوصية السياسة أنها تتعامل مع رعايا من مختلف البلدان ، حاملين لثقافات مختلفة وعلى الدولة الراعية أن تضمن الحماية والحرية لهؤلاء . بهذا المعنى تكون الممارسة السياسية حقيقية .

أما ما يعرف بالمواطنة العالمية ، فلا معنى لها، ولا تجسيد ممكن لها، لأنها ببساطة عرقلة وقتل لكل احساس بالمواطنة[34]، لأن أساس التقارب بين الأفراد هوما يجمعهم طبيعيا من قرابة، سواء دموية أوتاريخية أو نفعية أو أي عنصر من العناصر، التي تشرك الناس حقيقة على أرض الواقع وليس افتراضيا، كما في المواطنة العالمية .

ترى أرندت أن ترسيخ فكرة الانتماء للإنسانية وللعالم، كتعويض للانتماء لأمجاد الاسرة ولحيازة الفرد لقطعة أرض، هوتعميق لحالة الاغتراب، قد تسببت في فقدان وضياع الميدان العام والميدان الخاص، في الوقت نفسه . لا يشارك في الحياة السياسية، ولم تعد الأسرة قادرة على أن تتكفل بشؤون الفرد .

أي أنه في منظور أرندت، أول انتماء طبيعي يجب حمايته هوالانتماء للأسرة، وما يتبع ذلك هوأن يكون هناك للأسرة مورد رزق آمن، وهو ملكية قطعة أرض ، وفي حالة انتزاع الأرض، فإن الأسرة تفقد قدرتها على منح الحماية لأفرادها، فيتوجه هؤلاء الأفراد إلى الميدان العام لطلب الحماية . وعند ذلك يتحوّل هذا الأخير (الميدان العام) عن مهامه الأصلية . أي الممارسة السياسية .

يجب التوقف هنا عند فكرة الممارسة السياسية، عند أرندت، التي تمثل قطبا أساسيا في تحليلاتها عن الوضعية التي آل إليها الإنسان المعاصر، حيث ميزت بين مقولات : العمل (الكد) والأثر (الحرفة) والفعل السياسي .

حيث أن العمل،نشاط « يتناسب مع المسار البيولوجي للجسم البشري »، غايته صون النوع البشري، أما الأثر أونشاط الحرفة، فهويموّن عالما اصطناعيا من الأدوات، المراد منها الاستعمال . بالنسبة لنشاط العمل، هويربط الإنسان بالطبيعة لتستمر حياته، بالنسبة للنشاط الثاني، الأثر، يخلق عالما تستمر فيه حياة البشر بفضل الأدوات . هذين النشاطين يشكلان ضرورة طبيعية، فقط .

أما الفعل أو النشاط السياسي،عند أرندت فهو النشاط الوحيد، الذي يربط الأفراد فيما بينهم، بواسطة الفعل والكلمة، دون وساطة الأدوات أو الضرورة المادية . وهوما استغنى عنه الإنسان المعاصر حيث اشارت أرندت، إلى أن نشاط العمل أصبح مركز حياته، وبذلك انغمس في الحياة الاستهلاكية، على حساب تنظيم شؤونه مع الآخرين، حيث أن الفعل السياسي هو الذي يجسد حرية الانسان، بمأنه يستطيع أن ينجز أمورا جديدة أو بطولات، وذلك هو معنى الوجود الانساني . لذلك كان حدث انتزاع الأراضي، بداية لاغتراب الإنسان، وتحوّله عن الاهتمام بما يجمعه مع أقرانه، وهوما نسميه الشأن العام .

2.4. أثر انتزاع الملكية الفردية على علاقة الإنسان بعالمه :

للملكية عند أرندت، مفهوم خاص، بعيد عن مفهوم الغنى، كما هوفي فترة الحداثة، هويلتقي مع مفهوم " الميدان الخاص " فقد كان وما يزال امتلاك شيء ما، شرط للفرد ، حتى يكون مواطنا كامل الحقوق ، فملكيته شرط للمساهمة في الشأن العام .

ومعناه تحقق العلاقة " بالعالم " والتواجد الفعلي، الظاهر والمسموع. هذه الفكرة، كانت في عهد اليونان، مجسّدة بكل وضوح، فالذين يتمتعون بملكيات خاصة، وحدهم لهم الحق، في المشاركة في الشأن السياسي، أما مهمة توفير الحاجات البيولوجية ، فقد كانت موكولة للعبيد .

وعن عمق ورسوخ فكرة أولوية الميدان العام على اي اهتمام اقتصادي . بمفهومنا المعاصر. تقول أرندت أنه « لو قرر المالك، توسيع ملكيته ومضاعفتها دون استخدامها في سبيل المساهمة والمشاركة في الحياة السياسية، كان ذلك وكأنه يضحي بحرّيته، ليصبح بإرادته، ما هو عليه العبد، بغير إرادته، عبدا خاضعا للضرورة » .[35]

لا نستطيع ان نفهم فكرة ارندت إلا اذا عرفنا ما تنشده من وراء فكرة الملكية . ليست الملكية في حد ذاتها هي المبتغاة ولكن ما تكفله من استقرار وأمان، وما تتيحه للفرد من استقلال عن اسباب، الانقياد والخضوع للآخرين.

5. استنتاج

فكرة الاستلاب أوالاغتراب، ليست فكرة جديدة ، سبق أرندت إلى ذلك كل من هيجل ماركس وفيورباخ . حيث فسّر هيجل ظاهرة الاغتراب تفسيرا مجردا بإرجاعه للفكر والوعي، فيما يعرف بجدلية الوعي . على عكس منه فيورباخ الذي كان ماديا، أكد أن أسباب الاغتراب هو الدين فالإنسان يتنازل عن صفاته الذاتية لصالح الاله وبذلك يتغرب عن ذاته .

اما ماركس الذي انطلق من نقد هيجل فان الاغتراب عنده لا صلة له باغتراب الفكر عن ذاته، بل الظروف المادية، هي أساس الاغتراب، وبالتالي الاغتراب عنده مرتبط بعلاقة الانسان بعالمه الخارجي والواقعي، وهو عنده مرتبط بطبيعة العلاقة بين عمل الإنسان والمؤسسات التي يعمل بها والانتاج الصادر عن نشاطه وابداعه .

لقد نهلت أرندت من ماركس، فكرة الاغتراب، ولكن من أجل أن تنتقده ، لأنها جعلت العمل Labor le travail " نشاط الكد " الخاص بالتلبية للضرورة البيولوجية من الانشطة التي لا تعبر عن الوجود الحقيقي للإنسان لا يعبر عن كينونة الانسان ، كذلك نشاط الحرفة l'œuvre أما النشاط الأصيل الذي يجسّد الطابع الانساني فهو نشاط الفعل l'action المتمثل في النشاط السياسي .وهوما أهمله ماركس عندما اعتبر أن مرحلة الدولة هي مرحلة مؤقتة في النظام الاشتراكي .

عندما نتحدث عن النشاط سياسي، فمعنى ذلك أننا نشير إلى الجانب العلائقى للأفراد، علاقة الأفراد ببعضهم اشتراكهم ومساهماتهم في الشؤون العامة، وذلك تفعيلا لحرياتهم . لأن معنى السياسة عند أرندت هو الحرية [36]

أما عندما يتنازل الانسان عن " الفعل "أي عدم المشاركة في الشأن العام، وينغمس في عمليات الانتاج ...وخاصة العمل في اطار النظام الرأسمالى ، فإن ما يتولد عنه هو الاغتراب عن العالم، كما شرحنا .

ما أرادت أرندت توضيحه من خلال فكرة اغتراب الإنسان عن الارض وعن العالم هو خطورة تخلي الانسان عن شروط وجوده المعطاة شروط وجوده الأولى : أرض يحتمي بها ويضمن بقاءه وعالم يشترك فيه مع الآخرين.

هما شرطان متلازمان : حيث أن حالة الاغتراب عن العالم هي أحد نتائج انتزاع الملكيات الخاصة بالكنيسة وسقوط النظام الاقطاعي، وعندما يقع الفرد في إلزامية العمل عند الآخرين، خاصة في ظل الانظمة الرأسمالية ، فاستلابه يتعمق ويزداد ولا سبيل للإفلات .

لوأردنا معرفة ، لماذا شخصت أرندت، أسباب احساس الانسان بالغربة عن عالمه وأرضه ، لكانت الإجابة هي بسبب أن أرندت تؤمن بمبدأ " محبة العالم " amor mundi لا مناص من محبة العالم لاستمرار الحياة، رغم كل الحروب والابادات وما مرت به هي بنفسها من اعتقال وتهجير وفقدان الاحبة، لم تجد بديلا عن محبة العالم وإلا فمعنى ذلك ،أن يضع المرء حدا لحياته، وقد كانت شاهدة على ذلك [37]، عندما انغلقت السبل أمام الكثيرين ممن عرفتهم . وتمسك أرندت بالحياة، جعلها تنظر في أبسط الشروط التي توفر الاستمرارية في الحياة، رغم التحديات .

أرادت أرندت أن تنبهنا إلى مخاطر الانسياق وراء التغيرات التي يحدثها التطور العلمي، والتي تجعلنا نتنازل، عن ما يؤهلنا للعيش، في تناغم مع ما نملكه من امكانيات طبيعية .

كذلك نستنتج من قضية انسلاخ الفرد عن شرط من شروط وجوده أو الرغبة في ذلك، عند أرندت أنها حالة غير طبيعية، فحالة الاغتراب متعارضة مع واقع حياة الانسان، على هذه الأرض وبمعية الآخرين، لأنها تقطع سبل إنشاء عالم مشترك، فتخوفها من حالة الاغتراب ناتج من قناعتها أن حالة تفكك الأفراد ورفضهم لبعضهم، أو انغماسهم في شؤونهم وحاجاتهم البيولوجية، هو الذي فتح أبواب التقفّر (Loneliness)(La désolation) .

التقفّر عند أرندت، حالة من الانقطاع عن العالم، هي تجربة جذرية، لم يعرفها إلا معتقلوا نظم التوتاليتارية تمهيدا لإبادتهم . تقول عن التقفّر، هو «عدم الانتماء المطلق للعالم وهومن التجارب الأكثر جذرية والأكثر تحطيما للإنسان »[38] هذا الانسان الذي تحوّل إلى حالة من اللامبالاة بنفسه وبغيره (ماعدا الهمّ البيولوجي) عند أرندت، يكون قد فقد ذاته والعالم وقدرته على التفكير والحكم على الاختيارات التي تعرض عليه، فإذا بمثل هذا الفرد، يمكن له أن يرتكب أبشع الجرائم ضد الإنسانية، تماما مثل إيخمان[39] Eichmann . إن أخطر ما تخوفت منه أرندت، أن يصبح الانسان بلا تفكير، لأنه بلا تواصل مع العالم و منه جاءت فكرة عبثية الشر La banalité du mal .

فقد كان ايخمان أثناء محاكمته يصّر على أنه كان يطبق الأوامر ويؤدي واجبه ، عندما أشرف على الابادة الجماعية لليهود . لم يستطع التمييز بين الفعل الذي يقتضيه الواجب وبين الفعل الذي تقتضيه الأخلاق .

6. المراجع:

[1] Pierre Bouretz , Arendt , Les origines du totalitarisme , Eichemann à Jérusalem ,Éditions Gallimard ,2002, page 151 .

[2] حنة أرندت، أسس التوتاليتارية، ترجمة أنطوان ابوزيد، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، صفحة 250 .

[3] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، (د،ط) 1982، 765 .

[4] أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، إش أحمد عويدات ، دار بيروت، باريس، الطبعة 2 ، 2001، صفحة 43 .

[5]ريشارد شاخت، الاغتراب، ترجمة :كامل يوسف حسين، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 35 .

6 Hannah Arendt , condition de l'homme moderne , traduit de l'anglais pae Georges Fradier , Éditions Calmann-Lévy , 1961 et 1983 , page 318.

7 Ibid, p 318.

8 Ibid, p 33.

9 Ibid, p 34.

10 Ibid, p 35.

11 Hannah Arendt , La crise de la culture , traduit de l'anglais sous la direction de Patrick Lévy ,Éditions Gallimard , 1972 .page 338 .

12 Ibid, p 339.

13 Ibid, p 340.

14 Ibid, p 340.

15 مليكة بن دودة، الفلسفة السياسية عند حنة أرندت، منشورات الاختلاف،الجزائر العاصمة، الطبعة 1، سنة 2015، ص 92 .

[16] Hannah Arendt , crise de la culture , Op. Cit , p 341 .

[17] Ibid, p 342.

[18] Ibid, p 333.
[19] Ibid, p 345.

[20] Hannah Arendt, condition de l'homme moderne, Op.Cit, p 346.
[21] Ibid, p 347.
[22] Ibid, p 349.
[23] Heisenberg , philosophic problems of nuclear sciences ,New york, 1952, p73.(cc 351)
[24] Hannah Arendt, Condition de l'homme moderne , Op.Cit, p 330 .
[25] Ibid, p 315.
[26] Ibid, p 319.
[27] Ibid, p 321.
[28] Ibid, p 324.
[29] مفهوم " العالم " هوالعالم الإنساني، عند أرندت يتضمن كل منجزات الانسان من أشياء مادية أومعنوية، ويقابله الطبيعة، التي لم يساهم الانسان في ايجادها .
[30] Hannah Arendt ,Condition de l'homme moderne ; Op.Cit, p 324 .
[31] Hannah Arendt ,Condition de l'homme moderne ; Op.Cit, p 324 .
[32] Ibid, p 324.
[33] Ibid, p 335.
[34]Hannah Arendt , Vies politiques ; Paris, Gallimard , 1974, p 94-95 .
[35] H . Arendt , la condition de l'homme moderne , Op.Cit, p 106 -107 .
[36] Hannah Arendt , Qu'est -ce - que la politique ? traduction de Sylvie courtine- Denamy , Éditons du seuil , 1995 , p 72 .
[37] لقد كانت شاهدة على انتحار صديقها الفيلسوف ولتر بنجمين Walter Benjaminعلى إثر ملاحقة النازية له .
[38] Les Origines du totalitarisme Eichmann à Jérusalem , sous direction de Pierre Bouretz , Éditions Gallimard «Quarto», 2002 , p 834 .
[39] Ibid, p 832.